

جامعة القدس المفتوحة

كلية العلوم التربوية

فرع: نابلس

تخصص: تعليم التربية الإسلامية

بحث تخرج بعنوان:

القراءة المفتوحة للنّص الدينيّ

الطالب: مصطفى نايف مصطفى بلبيسي

إشراف

أ. عصام بدران

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة البكالوريوس في كلية العلوم التربوية
تخصص تعليم التربية الإسلامية – جامعة القدس المفتوحة

الفصل الصيفي (1183)

2018 - 2019 م

الإهداء

إلى عمتي التي أشعلت لنا تعبها يكون وقودًا إلى ما نرنوا ..
إلى أمي التي سقتنا ماء الطموح والمثابرة ..
إلى أبي يحني لنا ظهره نصعد على أكتافه إلى مراتب المجد ..
إلى دعاة الإعجاز العلميّ ودعاة تحريف النص ليواكب العصر أن كفّوا عبثكم عن كتاب ربّنا سبحانه وأفيقوا !

الشكر والتقدير

أحمدُ الله أن يسّر لي السبل لإنهاء هذا البحث وخروجه بهذا الشكل المتواضع البسيط .. ثمّ إنّ شكري وامتناني موصولٌ إلى إدار ة القدس المفتوحة وإلى كادرها التدريسي وعلى رأسهم استاذنا عصام بدران، المشرف على مشروعي التخرّج والذي بذل جهده في مساندتني والصبر عليّ .. شكر الله سعيه وأجزل له المثوبة .

ملخص البحث

لقد شكّلت القراءة المفتوحة ومدراسها الغربيّة الفلسفيّة أعمدة فكريّة بنيت عليها الكثير من التأويلات المنحرفة للنص الدينيّ خصوصًا النص القرآني، وبسبب انتشار تلك القراءة انتشار النار في الهشيم بين النخب وحتّى العوام كان لا بدّ من حالة وصفية لتلك الظاهرة وتفكيك بنيتها ومحرّكاتها الفعلية المتوارية وراء تلك القراءة وتسليط ضوء النقد عليها وتناول احدى المقاربات التأويلية للنص الديني المقاربة العلمويّة وبيان ما فيها من فساد داخلٍ على تلك المقاربة والتي تسمّى الإعجاز العلمي ..كلّ هذا تمّ تناوله في بحثي الذي بين يديك .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمدٍ خاتم النبيين ومعلّم البشريّة وسراج الهدى وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ..أمّا بعد،فهذا بحثٌ علمي وسمته ب " القراءة المفتوحة للنص الدينيّ" مقدم على أنّه مشروع تخرج في برنامج التربيّة الإسلامية

ربّما كان أكثر شيء قد أثير حوله الجدل في وقتنا المعاصر، وكثر اللغط فيه، وتشكّلت على إثره أنساق فكريّة ومنظوماتٍ-في حقيقتها تلفيقات- معرفيّة شتّى =موضوع القراءة المفتوحة للنص القرآنيّ. إذ ان العديد ممّن يقدم نفسه على أنّه "مفّكر" و " مجدّد" عصريّ، لا يجد أمامه بابًا يمرّر من خلاله أفكاره الجديدة إلّا باب القراءة المفتوحة للنص، ذلك أنّ القراءة المفتوحة لا تعتمد على معايير موضوعيّة صارمة لتحديد صوابية الفهم من عدمه، إنّما معيارها –إن كان ثَمّ معيار- معيار العصر وسلطته الثقافيّة ومنظوماته المعرفيّة السائدة، فيجد فيها كلّ أحدٍ ضالّته في أن يقول ما يشاء متحاميًا بالقرآن .

إنّ الهدف من بحثي هذا إنّما هو إطلالةٌ وصفيّة لحالة القراءة المفتوحة للنص الدينيّ وبيان ما يتعاورها من تحريف لدلالات الكتاب والسنة وتحميل الألفاظ حمولةً لا تطيقها ولا تقاربها بأيّ وجه من الوجوه وبيان أن هذه القراءة المفتوحة ليست إلّا بابًا تطرقه الطوائف المبتدعة والأفكار المنحرفة تنتظر أن تفتحه مرحبًا بها في أوساط المسلمين الفكريّة !

وتكمن أهمية البحث في أنّه يعالج قضيّة جدلية لها حضورها البارز على الساحة الفكريّة والمعرفية العصريّة بالإضافة إلى تسرّبها اللاواعي إلى وعي الإنسان المسلم الذي أضحى في

عصرنا يرى انّ معيار فهم النصوص لا يضبطه ضابط ولا يحدّه حدّ إنّما يتغيّر معيار الفهم تبعًا لتغيّر العصر !

ولقد كان سبب اختيار هذا البحث تفشّي تلك القراءة التحريفية لنصوص الشريعة بحيث أصبحت داءً أصاب جميع فئات المسلمين، وتأثيرها الجارف في تغيير تصوّر المسلم الصحيح عن بعض أحكام دينه ونظرته لبعض المضامين الثاوية في التيارات الفكريّة العصريّة .

أمّا الدراسات السابقة في الرد على القراءة المفتوحة العصريّة للنص الديني فكثيرةُ وإن كان أغلبها لم ينتظم في كتب إنّما أبحاث صغيرة أو أوراق مقدّمة للمؤتمرات ومن تلك الكتب التي تناولت هذه المسألة : تهافت القراءة المعاصرة لمنير محمد الشواف، دار قتيبة، دمشق، ط1، 2004م،والقراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير لمحمد محمود كالو، رسالة دكتوراه، جامعة الجنان، لبنان، 2007م،الانحراف الفكري في التفسير المعاصر ليحي ضاحي شطناوي، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1419هـ.... على أنّ بحثي هذا قد رسم الخطوط العريضة التي تصف تلك الظاهرة وتحاول تفكيكها في إطار علميّ متين بعيدًا عن التفاصيل .

وبعد، فقد قسمت بحثي هذا إلى ثلاثة مباحث وخاتمة وقد كانت المباحث على النحو الآتي :

1-القراءة المفتوحة، تعريفيها ورصد انعكاساتها في الفصاء الدينيّ .

2- القراءة المفتوحة وعلم أصول الفقه .

3-المقاربة العلميّة في تفس النص الدينيّ .

سائلًا الله التوفيق والسداد وأن يجعل ما كتبته خالصًا لوجه الكريم، وأن ينفع بهذا البحث المتواضع كلّ من يقرأه، والله الموّفق الهادي إلى سواء السبيل .

القراءة المفتوحة، تعريفها، وأسبابها، وانعكاسها على الفضاء الدينيّ

لقد شكّلت القراءة المفتوحة للنص القرآنيّ وما يسمّى بتاريخنيّة النص وبعض مناهج الهرمينوطيقا ركيزة أساسيّة لتعويم فهم النص ونسبيّة معناه تبعًا للعصر وسردياته المعرفيّة، متحركةً أحيانًاعلى قاعدة صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، ومتترسّة بضرورة التقدّم في فهم القرآن ليتماشى مع الحضارة والتطوّر من أجل تقديمه إلى العالم بصورة عصريّة عقلانيّة مع غضّها الطرف عن فقدان النص لتلك المعانيّ العصريّة التي يحاولون أن يحمّلوها النص تكلفًا .

لقد تبلوّر عن تلك القراءة التأويلية للنص الديني العديد من المقاربات التي تم مقاربة النص فيها تأويليًا ، غير أن تلك المقاربات نستطيع جمعها في إطار تفسيريّ يوضّح الباعث على تشكيل تلك المقاربات والتي نستطيع إجمالها بثلاث نقاط أساسية :

1-سلطة الثقافة الغالبة التي تشكّل عامل ضغط قويّ على المنطلقات والرؤى الفكريّة، بفعل أنّ " المغلوب يتشبه أبداً بالغالب "[1] فالمغلوب يكاد يفقد هويّته وذاته الثقافيّة منصهرًا في بوتقة الغالب الثقافيّة .

2- الإنطلاق من مسلّمة صحيحة " الدين صالح لكل زمان ومكان" بتأوليها تأويلًا فاسدًا بأنّ الدين "يجب" أن يطوّع ليتساوق مع متغيّرات العصر وذلك بإعادة قراءة النص انطلاقًا من الواقع .

3-الجهل المطبق في مقاصد الشريعة وأحكامها وفنونها المتنوّعة التي لو عقلت ما وصلنا لتلك المقاربات، فمن عقل أصول الفقه وأصول التفسير ما كان ليقول مطلقًا بتلك القراءة المفتوحة للنص القرآني .

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، سوريا، 350/1

إنّ النص من حيث هو نص بغض النظرعن الموضوع الذي يحمله، لا يكون له معنىً إلّا إذا فهم منه دلالته اللغويّة، لذا تجد أن البشر تواضعوا فيما بينهم على كلامات مشكّلة من حروف لها أصوات مختلفة لإنشاء عملية ترميز بينهم من أجل التواصل، وحمّلوا تلك الكلمات معاني اتّفقوا فيما بينهم عليها.. وكانت السياقات الخطابيّة محددةً لمعاني بعض الكلمات التي تندرج تحت " المشترك اللفظي " أو تلك الكلمات التي اختلف معناها من عصرٍ إلى أخر بسبب تواضع مختلف في عصر ما، فمثلًا في قوله تعالى " وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلوا دلوه .. " ،فلفظة سيارة تعني القافلة السائرة وهذا ما فهمه العرب من هذه اللفظة وما يجب أن نفهمه أيضًا من الآية، لكن هذه اللفظة أصبح لها معنىً أخر في عصرنا، حيث اطلقت على المركبة الميكانيكيّة المتنقّلة، غير أن هذا المعنى الحديث لا يجب أن يتبادر إلى ذهن قارىء الأية كون أن الآية نزلت للعرب حينها وعلى معانيهم التي تواضعوا عليها، فالواجب تحقيق المعنى الذي كانت عليه الألفاظ في عصرهم .

من هنا كان موضوع تحقيق فهم النص على وجه الصحيح أحد أهمّ الموضوعات التي كانت ولا زالت حاضرة وبشدّة في الدرس اللغوي وما يرتبط به من مواضيع دينيّة وتاريخية وغيرها .
كان الصحابة –وهم من العرب الأقحاح- يفهمون كلام الله سليقةً دون تعنّت وكلفة وكان ما يجهلونه من كلام ربّهم يسألون عنه نبيّهم فيوضّح لهم ما التبس لهم فيه من معنى، أو يصحّح لهم معنىً فهموه خطأ، من ذلك ما جاء في الأثر، من أن الصحابة فهموا الظلم الوارد في قوله تعالى " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " أنّه ظلم للنفس فشقّ عليهم ذلك فبيّن لهم رسول الله انّ القصد من الظلم في هذه الآية الشرك، مستدلًّا لهم بقوله تعالى على لسان لقمان -عليه السلام- " لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلمٍ عظيم " أيّ أن الشرك من الظلم .

أمّا القراءة المفتوحة والتي تعني أنعدام الضوابط والمعايير الحاكمة في فهم النص، وتعوميه المطلق، واختلاف فهم النص تبعًا للعصر وتشكّلاته المعرفيّة، ووصف كلّ قراءة رزينة منضبطة للنص الدينيّ بأنّها قراءة جامدة لا تواكب روح العصر، والحطّ على جهود علماء المسلمين في ارساء قواعد فهم النصوص على مدار مئات السنين =فإنّها قراءة منبتّة عن أصول العلم وقواعده وليست إلّا سمة من سمات عصرنا المائج في النسبيّة واللامعيارية التي انبثقت عن التيارات ما بعد الحداثة والتي تناولت مسألة التأويل بشكّل موسّع .

إنّ القراءة المفتوحة للنص الدينيّ ليست وليدة اللحظة بل شكّلت ترعةً خصبة تنمو عليها الأفكار والأراء المنحرفة والتي كانت تشكّل عند اشتداد سوقها فرقًا ومذاهب متعدّدة، والتاريخ الإسلاميّ يشهد بعشرات المذاهب والفرف التي نشأت عبره بسبب تلك القراءات المنحرفة، كالخوارج والشيعة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماترودية وغيرها من الفرق، التي ابتعدت عن الحق قدر ابتعادها عن تحرير الصواب في فهم مراد الله ورسوله، يقول ابن القيم: **وهل أوقع القدرية، والمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، والروافض، وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله صلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام، والذي فهمه الصحابة رضي الله تعالي عنهم ومن تبعهم عن الله ورسوله صلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم فمهجورٌ لا يُلتفت إليه، ولا يرفع هؤلاء به رأساً"**[2]

غير أن تلك الفرق على انحرافها وضلالها لم يكن تطرَفها في تكلّف قراءة النصوص كتطرّف القراءة في عصرنا، فلم يكن عندهم نظريات التاريخنية ومناهج فلاسفة الهرمنيوطيقا المختلفة وغيرها من نظريات العصر التي تحمل سطوةً وقداسةً على العقول.

لقد كان الخوارج أوّل من أساؤوا الفهم عن الله ورسوله، وكانت حركتهم الفكريّة والسياسيّة اوّل تجسيد فعليّ لسوء فهم الوحيين، ذلك الفهم الذي أدّى بهم إلى تكفير صحابة الرسول واستباحة دمائهم، ولقد كانت مناظرة ابن عبّاس لهم في مناظرته الشهيرة توصيفًا حقيقيًا لأراء تلك الفرقة ومنهجها الخاطىء في فهم كلام الله وأنّ الضلال ما دخل عليهم إلّا من باب التأويل الفاسد لشرع

---

[2] ابن القيم، محمد بن ابي بكر بن أيوب، الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ط1، المملكة العربية السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، 1432هـ،64/1

الله .

امّا الفلاسفة الإسلاميون والصوفيّة والمتكلّمون كالمعتزلة والأشعرية وغيرهم، فما كان لهم ليدخلوا التركة اليونانيّة الفلسفيّة وخصوًصًا فلسفة أرسو على الشريعة إلّا من خلال العمليّة التأويلية المنحرفة، إذ أنّهم انطلقوا من تراث اليونان إلى الشريعة ممّا كلّفهم تحريف معاني النصوص بليّ أعناقها ليًّا كي تتماشى مع ذلك التراث اليونانيّ .. فهذا ابن سينا يرى ان القرآن رموزًا منصبًا نفسه مفسرًا له، وهذه الصوفية التي تشطح في تقديس فلاسفة اليونان أمّا المتكلّمون فكانوا يشكّلون منظومتهم العقديّة استنادًا على النظرة الأرسطيّة للإله مثل "المحرّك الذي يتحرك " والتي ألزمتهم إلزامات عقديّة من نفي كلّ ما يتصل بالحركة والنقلة في حقّ الله سبحانه، فصادموا ظاهر النصوص الزامًا بما الزموا به أنفسهم من فلسفة اليونان !

العلاقة بين علم أصول الفقه والقراءة المفتوحة للنص الدينيّ

لقد أنزل الله القرآن بلغة العرب وعلى أساليبها في الخطاب وعلى المعنى الذي تواضعت عليه ألفاظهم، وما حمل لفظُ معنىً اصطلاحيًا شرعيًا إلّا وكان في ذلك المعنى الكليّ معنىً جزئيٌ يتوافق مع معناه اللغوي..فإنّ الله قد أنزل القرآن مخاطبًا فيه العرب ومتحديًا إياهم في أن يأتوا بمثله، فحاشاه -سبحانه-أن يتحدّاهم في أمرٍ لا يعلمونه ولا يعقلونه ولا يجري على سنَنِهم في الخطاب، فيكون تحديه إيّاهم عبثًا أو عيبًا يعيبنه عليه في أن يطالبهم بالإتيان بمثل شيئ لا يفهمونه ولا يعرفونه .هذا يعني أنّ فهم القرآن لا يتأتّى لمن جهل لسان العرب وأساليبهم في الخطاب، إنّما مقدار فهمه له بمقدار ما عنده من معرفة بلسان العرب، والجاهل بلسانها جاهلٌ بمراد الله من كلامه، فالأعجميّ مثلًا لو جاء يقرأ القرآن لرأى فيه رموزًا وطلاسم لا تفهم، كالعربيّ الذي يقرأ لغةً غير لغته فلا يفهم منها شيئًا .

هذه الحقيقة والتي يجب أن تجري مجرى المسلّمة والضرورة العقليّة صار لازمًا التأكيد عليها في عصرنا الحاليّ ..عصر اللامعيارية والنسبيّة. فإذا كانت فهوم السابقين قد ضلّت بفهمها كتاب الله مع قربها العهديّ بالعرب الأقحاح وعصر نزول الوحي، كان الضلال والغيّ في هذا العصر آكد وأولى بالحدوث، إذ أن العُجمة قد قد دخلت على الألسن والذوق اللغويّ قد نزل إلى أسفل دركات الذوق، ففصاحة العربيّ في عصرنا كالعجميّ الذي دخل الإسلام في عصور السالفين بل دونه في فصاحته وبلاغته .

درج الصحابة ومن بعدهم على فهم كلام الله سليقةً دون قواعد مكتوبة يرجعون إليها، وكان اختلافهم في التفسير اختلاف تنّوع لا اختلاف تضاد، وكان مرجعهم في ترجيحاتهم دواوين

أشعار العرب الأقحاح ونثر العرب، من ذلك ما رواه سعيد ابن المسيّب قال: بينما عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على المنبر قال : يا أيها الناس ، ما تقولون في قول الله - عز وجل - : أو يأخذهم على تخوف فسكت الناس ، فقال شيخ من بني هذيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان ، ما فعل دينك ؟ قال : تخوفته ، أي تنقصته ; فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟ قال نعم ; قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه:

تخوف الرحل منها تامكا قردا.. كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : يا أيها الناس،عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم " وذلك لعتقادهم أنّ كلام الله لا يفهم إلّا من خلال لسان العرب لا غير، دون تنطّع وتكلّف في الفهم يخرج عن معاني الألفاظ وسياقات الخطاب، إلى أن جاء الشافعيّ ووضع كتابه " الرسالة" في أصول الفقه ليكون الشافعيّ أوّل من أسس "منهجًا" مضبوطًا لفهم كلام الله ورسوله على حقيقته .

والشافعيّ لم يكن إلّا جامعًا لتلك القواعد مجرّدًا لها عن جزئياتها التي تندرج تحتها، إذ أن تلك القواعد قانت قائمةً في ذهن المفسّر حاضرةً عنده أثناء التفسير، فلم يأت الشافعيَ بجديد من عنده، إنّما كان جديده في جمع تلك القواعد وترتيبها وجمعها في كتاب جامع، ليضحي كتابه بعدها منطقًا عاصمًا ومنهجًا ثابتًا كالحمى لدين الله، وصخرة صمّاء صلدة تتحطّم عندها معاول تأويل المتكلفين وتحريف الضالين.

كان عمل الشافعيّ -رضي الله عنه- في كتابه الرسالة التأسيسَ لمنهج سليم في فهم نصوص الشريعة، وبيان مصادر التشريع والتدليل عليها، ووتفصيل ذلك كلّه بعبقرية متناهية تنمّ عن عقليّة فذّة تمتّع بها الشافعيّ.حيث تعرّض الشافعيّ في كتابه إلى ضرورة المعرفة بلسان العرب

وأساليب العرب في التعبير، لمن يريد أن يفهم مراد الله من كلامه،فتكلّم عن العامّ والخاص والظاهر والخفي ..الخ وتكلّم عن الناسخ والمنسوخ وحجّية الخبر الواحد وعلل الأحاديث وغيرها من القواعد التي بثّها في كتابه والتي شكّلت المعمار الأصولي الإسلاميّ، الذي ما زال يقف شامخًا أمام محاولات هدمه من قبل المنهزمين العصرييّن بدعوى إعادة النظر في المعمار الأصوليّ وضرورة تجديده، من أجل أن يجدوا منفذًا بجداره يدخلون منه تحريفاتهم وضلالاتهم.

إنّ العلاقة بين علم الأصول والقراءة المفتوحة للنص الدينيّ ما هي إلّا علاقة تصادم وتضاد، إنّها العلاقة بين المعيارية والإنضباط في فهم النص وبين اللامعيارية والنسبيّة والفوضاوية في الفهم، هذه العلاقة التي دفعت منظري نظرية القراءة المفتوحة إلى الهجوم المستمر على علم أصول الفقه كما بيّنا أعلاه، ودعوتهم المستمرّة إلى إرساء قواعد -إن كان ثمّ قواعد- عصريّة منفلتة تواكب إفرازات السرديات الفكريّة الوافدة إلينا من أجل إنشاء حالة من التصالح والتوافق بين نصوص الشريعة وتلك الإفرازات.

كثيرةٌ هي المقاربات العصريّة في تفسير النص الدينيّ، والتي تنوّعت تنوّع الفكرة أو المنظومة المعرفيّة السائدة في زمن دون غيره، فتجد مثلًا أنّه وفي زمن صعود الفكرة الإشتراكية كان ثمّة مقاربة اشتراكيّة للدين كتب فيها على سبيل المثال مصطفى السباعي، وكان هناك مقاربات علمانيّة كثيرة، لكن اكثر مقاربة وجدت وكان لها تأثير واسع ليس فقط بين الناس العاديين إنّما بين خواص المتديينن هي المقاربة العلموّية التي تمثّلت بالإعجاز العلميّ، ولانتشار هذه المقاربة بشكل كبير وتفشّيها في الإوساط العلميّة سأتناول هذه المقاربة في مبحثٍ مستقلّ من بحثّي هذا .

المقاربة العلمويّة للنص الديني

لقد كانت المقاربة الدينيّة أكثر مقاربة تفسيرية للنص الدينيّ في عصرنا الحالي، لما شكّلته العلوم الطبيعيّة من سطوة معرفيّة على باقي المجالات المعرفيّة الأخرى، حتّى أن العديد نطاق

عمله التهم العديد من تخصصات العلوم الإنسانيّة التي أضحت خاضعة إلى العلم التجريبيّ ..كانت تلك المقاربة متمثّلةً بالإصطلاح الشائع الإعجاز العلميّ .

لقد أضحى "الإعجاز العلميّ" بمثابة الدليل الوحيد الذي يؤسس عليه منظرو الإعجاز صحّة دين الإسلام، دون الإلتفات للإعجاز اللغويّ الحقيقيّ للقرآن والذي تحدّى الله به العرب، فتجد أن المسلم لا يدرك من القرآن إعجازًا غير هذا الإعجاز، ولا يعلم عن بلاغة القرآن وروعة بيانه إلّا ما يسمعه لمامًا من هنا او هناك ..هذه الحالة التي تفشّت بين المسلميمن من عدم ادراكهم الحقيقيّ لإعجاز القرآن ليست إلّا بسبب تضخيم نوع إعجاز معيّن على النوع الحقيقي لإعجاز القرآن .

إن المشكلة في المقاربة العلميّة للنص ليست في أنّها لم تكن موجودة على زمن النبي وصحبه وعلماء المسلمين السالفين، أو أنّها بدعة في لم يات بها الدين، فيكون نقدها من هذه الجهة، إنّما نقدها من جهة أنّها تحمل في طيّاتها تحريفًا لنصوص الشريعة، وتحميلًا لها ما لا تحمله من معاني جديدة .. تجد مثلًا أكبر منظري الإعجاز العلمي الدكتور زغلول نجار يفسّر ألفاظ القرآن بتفسيرات لا تحتملها اللغة بأي وجه من الوجوه، يقول الدكتور مساعد الطيّار أستاذ التفسير في جامعة الملك سعود في شأن تفسير زغلول نجّار لقوله تعالى " فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿15﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿16: ذهب الأستاذ الدكتور زغلول النجار في تفسير هاتين الآيتين إلى مذهب جديد لم يُسبق إليه، وهذا المذهب الذي ذهب إليه إنّما كان بسبب ما ظهر عنده من العلم الجديد في دراسة النجوم، وقدّ فصل المعنى الللغوي للفظتين (لبخنس والكنس)، وجعل الخنوس بمعنى الإختفاء الكامل. وليس من شكّ أن أصول الخنوس كما نقله عن ابن فارس، لكن زيادة قيد

(الكامل) في قوله :"ولكن الوصف القرآني بالخنس يعني الإختفاء الكامل، ولا يعني الظهور ثمّ الإختفاء" لا دليل عليه من نقل ولا عقل ولا لغة، إنّما هو بسبب هيمنة تلك القضية الفلكية على ذهنه أثناء تفسيره لهذه الآية . وجعل الكنوس من مادة كَنَس يَكنِس ومنها المِكنَسَة، ولم يجعله من كناس الظبيّ (أي بيته) كما ذهب إليه بعض مفسري السلف وغيرهم . والمعنى الذي ذهب إليه في معنى الكنوس حادث، وإنّما قاده إليه تلك القضية الفلكية التي لا يتناسب معها جعل الكنوس من الكِناس، وإنّما يناسبها جعله من الكَنسِ .وهذا الإختيار لهذين المعنيين ما كان ليكون لو لم يكن له معرفة بما يسمى بالثقوب السود والتي هي حالة من حالات النجوم ذكرها الفلكيون المعاصرون . فلو لم يعرف هذا ما كان ليطرأ عليه هذا المعنى البتة وهذا يدللك على أن هذا أسلول الإعتقاد المُسبق ثم الإستدلال له [3].

لقد شكّل قوله تعالى " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق " القاعدة الثابتة التي تحرك على أساسها موضوع الإعجاز العلمي، فعلى الرغم من أن الآية لا تحمل المعنى الذي تأوّله منظرو الإعجاز العلمي إلّا أنّ المنطق التأويلي المنحرف الذي خيّم على أغلب القراءات العصريّة للقرآن كان من السهل أن تخرج بنتيجة أن الآية تدلّ على وجود الإعجاز العلمي .

اتّجه المفسرون في تفسير الآية إلى اتجاهيين اثنين : اتجاه يرى أن الآيات تعني الشمس والقمر والنجوم وآيات يقيمها الله في النفس واتجاه آخر يرى أن الآيات وقائع النبيّ بالكفّار وفتحه لمكّة، على أن كلا الإتجاهيين متفقان على أن الآية خاصة بأهل مكّة بالإضافة إلى أن القول الثاني هو الأرجح في التفسير "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الأول, وهو ما قاله السديّ, وذلك

3

الطيار، مساعد بن سليمان، الإعجاز العلمي إلى أين، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي،1433هـ،ص59-60

أن الله عزّ وجلّ وعد نبيّه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذّبين آيات في الآفاق, وغير معقول أن يكون تهدّدهم بأن يريهم ما هم راءوه, بل الواجب أن يكون ذلك وعدا منه لهم أن يريهم ما لم يكونوا راؤه قبل من ظهور نبيّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم على أطراف بلدهم وعلى بلدهم, فأما النجوم والشمس والقمر, فقد كانوا يرونها كثيرا قبل وبعد ولا وجه لتهددهم بأنه يريهم ذلك.

يقول جلّ ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) :وقوله وبهم حتى يعلموا حقيقة ما أنـزلنا إلى محمد, وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهرو ما بعثناه به من الدين على الأديان كلها, ولو كره المشركون"[4]

أمّا عدم تفريق جماعة الإعجاز العلميّ بما هو علميّ وما هو علميّ زائف والتفريق الصحيح بين النظريّة والحقيقية فأبعد ما يكون، هذا بالإضافة إلى جهلهم في فلسفة العلوم والعلم الطبيعيّ نفسه فكم من مصدر علميّ احتجّوا به وهو كاذب أو ضعيف علميًا .. كلّه من أجل اثبات حقيقة ما يسمّى الإعجاز العلميّ .

هذا بعض أمثلة أوردناها ننقدها على خطاب الاعجاز العلميّ والّا الأمثلة ليس لها حصرٌ، ومن أراد الاستزادة فليراجع كتاب الإعجاز العلمي إلى أين للدكتور مساعد الطيّار.

أمّا التعارض بين العلم الطبيعيّ والنص الإلهي، فرغم قلّة الآيات التي تتقاطع مع موضوعات العلم الطبيعيّ فَإنَّك لن تجد تناقضًا بين آيات الله المسطورة وآياته المنظورة، خذ مثلًا كلام القرآن عن مراحل تطوّر الجنين التي وافقها العلم الطبيعيّ، فإنّ هذه الآية هي اصرح آية في القرآن تحمل موضوعًا علميًّا ومع هذا تجد العلم الطبيعيّ قد وافقها غير أنّ هذا التوافق لا يسمّى اعجازًا إنّما يكفي أن يقال انّه لا يوجد تناقض بين القرآن والعلم الطبيعيّ أو يقال أن هذا من دلائل صدق القرآن لا أن يجعل الأمر نفسه اعجازًا، إذ أنّه قد ينظم عالمٌ شعرًا في كتاب

[4]الطبري، ابوجعفر محمد بن جرير،تفسير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد الله المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، 1422هـ، 462/20 .

ويتطرق فيه إلى نظرية علميّة سائدة في عصرهم هل يقال عندما يأتي العلم ويثبت هذه النظريّة على وجه القطع أنّ ذلك الشعر معجز ولا يستطيع أن يأتي به البشر ؟

ليعلم أنّ تحدي القرآن للعرب لم يكن في جانب العلم الطبيعيّ بل كان في الجانب البلاغيّ، فإذا كنت لا تستطيع أن تثبت أو ترى ذلك الاعجاز في القرآن إنَّما هذا لا يكون إلَّا بتقصير منك في ادراك ذلك الاعجاز. وليس القرآن كتابًا تعلّقه بمجريات التاريخ تعلّقٌ تبعيّ بحيث اذا صبغ العصر بنظرية أو صيغة فلسفيّة نجعل القرآن تبعًا لها إنَّما القرآن ثابت في إعجازه البلاغيّ الذي عجز عن مضاهاته العرب الأقحاح ومن بعدهم أعجز في الإتيان بمثله. ولو استطاع العرب أن يؤتوا بآية واحدة يعارضون بها كتاب الله ما كانوا لينفروا للسيف والرمح يطاعنون المسلمين، فليس من العقل في شيء أن تبذل السيف والنفس والعرض في قتال رجلٍ يطالبك بأن تأتي بآية واحدة تعارض فيها كلامه -بزعمك-وأنت تستطيع أن تأتي بتلك الآية نظمًا وسبكًا فتبطل كلّ كلامه وتكذّبه أمام اتباعه، إنَّما ذلك دليل عجزٍ منهم فلجؤوا إلى القتال وبذل المهج في مقارعة محمد -صَلَّى الله عليه وسلم - واصحابه ...

اخيرًا قد يقال أوليس الإعجاز العلميّ يُنصر به الدين؟! ويدعى به الكفّار إلى الإسلام ؟! قلنا : لن نكذب على الله من أجل دينه، ولن نحرّف معاني كتابه من أجل هدفٍ موهوم قد يتحققّ وقد لا يتحقّق، ثمّ هل يعقل أن تترك القرآن رهينة ثبات العلم وتغيّره؟! وماذا سيكون موقف الإسلام أمام البشر إذا خرج عالمٌ متخصص فبين دجل "معظم" منظّروا الإعجاز العلميّ هل ستعود الضريبة فقط على أولئك أم سيدفع الإسلام ضريبة ذلك الإنتحار التأويلي المنحرف؟!